إليكَ إليكَ عنّي يا عَذُولي فَلستُ من الصَبابةِ أستفيقُ[١]
فَلي قلبٌ إلى باناتِ حَزْوَى طَروبٌ لا يملُّ ولا يُفيقُ[٢]

وقد كتب إلى والدِه قصيدةً لما صُدّ الركب اليماني عن الحجّ سنة (١٠٨٨)[٣] يحثّه على الجهاد ومطلعها: [من الوافر]

لَعَمْرُكَ لَيْس يُدْرَكُ بالتَّواني ولا بالعَجْزِ غاياتُ الأَماني[٤]

وهي غاية في بابها. وكانت بينه وبين المهدي مُحمَّد بن أحمد صاحب المواهب منافسة على الملك والبلاد قبل أن يلي المهدي الخلافة، واتفقت بينهما حروبٌ وفِتنٌ كبيرة، ومن سعادته أنه أدركه الأَجل قبل أن يلي المهدي الخلافة، فمات في يوم الجمعة ثالث شهر رمضان سنة ١٠٩٦ ستٍّ وتسعين وألف، بمدينة أب، وقبرُه بها.

٣٠٥

(عَليُّ بن إسْمَاعيل بن يُوسُف القونوي علاء الدين الشَّافعيّ)[٥]

ولد بقونية من بلاد الروم سنة ٦٦٨ ثمانٍ وستين وستمائة، وقدم دمشق سنة (٦٩٣) فدرَّس بالإقبالية، ثم قدم القاهرة فسمع من جماعة كأبي الفَضْل بن عَسَاكر، وابن القيِّم، والدمياطي، وابن الصوَّاف، وابن دَقِيق العيد. وقرأ في الأصول على تاج الدين الجيلاني، وتقدّم في معرفة التفسير والفقه والأصول، وأقام على قدم واحد ثلاثين سنة يُصلي الصبح جماعة، ثم يقرأ إلى الظهر، ثم يصليها ويأكل في بيتِه شيئاً ثم يتوجه إلى زيارة صاحب، أو عيادة مريض، أو شفاعة أو تهنية أو تعزية، ثم يرجع ويشتغل بالذكر إلى آخر النهار. وكان السلطان الناصر يعظمه ويثني عليه، ثم ولَّاه قضاء دمشق، فتوجّه إليها في سنة (٧٢٧) فباشره أحسن مباشرة مع تصلُّب زائد، وعفّةٍ لم يكن له في الحكم نهمة، بل هو على عادته في الإقبال على العلم. وكان كثير

(١) الصبابة: رقة الشوق وحرارته.
(٢) بانات: شجرات بان، وكنى بها عن نسوة يشبهن أغصانها في الاستواء واللين والتثنّي. حزوى: موضع. طروب: كثير الطرب، وهو هِزّة تأخذ الإنسان من حزنٍ أو فرح.
(٣) قيل: إن الرسالة كانت سنة ١٠٨٣هـ، لأن والد المترجم له كان قد توفي سنة ١٠٨٧هـ كما تقدم.
(٤) التواني: الفتور والكسل والإبطاء.
(٥) ترجمته في: معجم المؤلفين: ٧/ ٣٧؛ الدرر الكامنة: ٣/ ٢٤؛ البداية والنهاية: ١٤/ ١٥٣؛ شذرات الذهب: ٦/ ٩٠؛ بغية الوعاة: ٣٢٩؛ كشف الظنون: ٤١١، ٤٢٠؛ هدية العارفين: ١/ ٧١٧؛ الأعلام: ٤/ ٢٦٤.

الفنون كثير الإنصاف كثير الكتب. ولما استقر بدمشق أعطى الشافعية ألف دينار وقال: هذه حضرت معي من القاهرة. وله مصنفات، منها: شرح الحاوي، وشرح مختصر المنهاج للحليمي، ثم طلب الإعفاء من القضاء فلم يجبه السلطان. وكان يعظم الشيخ تقي الدين بن تيمية ويذبُّ عنه. ويقال إن الناصر قال له: إذا وصلت إلى دمشق قلْ للنائب يُفرج عن ابن تيمية، قال: يا خوند لأيّ معنى سُجن، قال: لأجل الفتاوى، قال: فإن كان راجعاً عنها أفرجنا عنه، فيقال: كان هذا الجواب سبباً لاستمرار ابن تيمية في السجن إلى أن مات، لأنه كان لا يُذعن للرجوع. ولما خرج ابن القيِّم من القلعة وأتاه سُرَّ بهِ وأكرمه ووصله، وكان يثني على أبحاثه، قال الإسنوي في ترجمته: وكان أجمع من رأينا للعلوم مع الاتساع فيها، خصوصاً العقلية واللغوية لا يشار بها إلَّا إليه. وتخرَّج به أكثر العلماء المصريين، قال: وتحيّل عليه جماعة من الكبار في أن يبعد عن الديار المصرية لأغراض، فحسَّن للسلطان توليته قضاء الشام ففعل، فسأله السلطان في ذلك، وتلطَّف به، فاعتذر. ومن جملة ما قال للسطان: إن له أطفالاً يتأذون بالحركة، فقال له السلطان: أنا أحملهم على كفِّي وبسط يده. ومن شعره: [من الخفيف]

غَمَرتْني المكارمُ الغُرُّ مِنْكُم ... وَتَوَالتْ عَليّ مِنْها فُنونُ
شَرْط إحْسَانكم تحقَّق عِنْدي ... لَيْتَ شِعْري الجزاءُ كيفَ يكُونُ

وكان موته في رابع عشر ذي القعدة سنة ٧٢٩ تسعٍ وعشرين وسبعمائة بدمشق، وتأسَّف الناس على فقده.

(٣٠٦)

(عَليُّ بن أبي بَكْر بن سُلَيْمان بن أبي بَكْر بن عُمَر بن صَالح نُور الدين الهَيْثَمي الشَّافعي الحافظ)[1]

ولد في رجب سنة ٧٣٥ خمسٍ وثلاثين وسبعمائة بالقاهرة، ونشأ بها فقرأ القرآن، ثم صحب الزين العراقي، ولم يفارقه سفراً وحضراً حتى مات. ورافقه في جميع مسموعاته بمصر والقاهرة والحرمين وبيت المقدس ودمشق وبعلبك وحماة وحلب وحمص وطرابلس وغيرها، ولم ينفرد أحدهما عن الآخر إلَّا بمسموعات يسيرة ومشائخ قليلة. وصاحب الترجمة مكثرٌ سماعاً وشيوخاً، ولم يكن الزين يعتمد في شيء من أموره، إلَّا عليه، وزوَّجه ابنته ورزق منها عدة أولاد. وكتب الكثير من

(١) ترجمته في: معجم المؤلفين: ٧/ ٤٥؛ شذرات الذهب: ٧/ ٧٠؛ كشف الظنون: ٩٥٧، ١٤٠٠؛ إيضاح المكنون: ١/ ١٨٦؛ هدية العارفين: ١/ ٧٢٧؛ الأعلام: ٤/ ٢٦٦.